فولتير الفيلسوف الساخر والعاشق المثقف

(١٦٩٤ م - ١٧٧٨ م)

صراخ

وأنين وألم ووجع وبؤس واكتئاب وظلم ونفاق، هذا هو عالمنا الحقيقي وحياتنا التي نعيشها، قال عنها سليمان الحكيم: «باطل الأباطيل الكل باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس»، وقال عنها أبو الصبر أيوب «عريان خرجت من بطن أمي وعريان أعود إلى هناك..» بل طالبنا الفيلسوف الألماني المتهور «شوبنهاور» أن ننتحر حتى لا نعاني من هذه الدنيا الفاسدة، والطريف أنه يطالبنا بذلك ولكنه لم ينتحر! وهذا هو الفيلسوف الأسباني «أونامونو» يقول: الإنسان في جوهره أسيان، والحياة مأساة !.

وإذا كانت الحياة هكذا فهل نلطم خدودنا، ونركن إلى الحزن وننتظر الموت؟

هنا يأتي فيلسوف فرنسا «فولتير» ليدفعنا إلى الثورة على الظلم والنفاق والاستعباد، وتحقيق حرية الإنسان الكاملة، مستخدمين أسلوب السخرية والضحك، فهو القائل: «إني أضحك حتى لا أصاب بالجنون»، «أضحك ودع الآخرين يضحكون، فالنحطم الخرافات ونجعل لحياتنا معنى، فالكفاح شيء جميل».

عـاش فولتـير ثائرًا على الظلـم، وعلى كل ما يجعـل الحياة قاتمة مظلمة كئيبة، ودافع عن حرية الإنسـان ضـد أقوى القوى العاتية إبان تلك الفترة التاريخية العصيبة، ضد الملكية، وضد الكنيسة. كان الفساد يدب فى كل جانب فى بلاده فرنسا، فالبروتستانت يحاربون الكاثوليك والكاثوليك منقسمون على أنفسـهم والنبلاء يحتقرون العامة، والعامة يحقـدون على النبـلاء والكل يكرهون الملك، وشـقى فولتـير بدعوته وكفاحه، واستضافه سجن الباستيل كثيرًا، لكنه لم يهتم أو يتنازل عن رسالته فى الحياة وهى تحرير الإنسان وتحقيق سعادته.

ولد «فرانسـوا مارى أروبيه» الذى اشتهر باسـم «فولتير» فيما بعد سنة ١٦٩٤، وبدأت سخريته مع ولادته إذ إنه بعد ولادته مباشرة كان ضعيفًـا رقيقًـا حتى إن الممرضات اضطررن إلى لطمـه حتى تدب الحياة فيه، وقدرن لحياته أربعة أيام على الأكثر لكن الطفل سخر من الجميع وعاش أربعة وثمانين عامًا. رحلت والدته وهو فى السـابعة من عمره، واهتـم أبوه بصحته ومسـتقبله وأخلاقه، فقد كان رجـلاً متدينًا يعمل بالمحامـاة، على الرغم من ضعف الطفل فرنسـوا إلا إنه اتسـم بالذكاء والحيوية وحب العلم، وعندما بلغ السابعة عشرة ربيعًا اكتشف مواهبه وعرف استعداده وقرر أن يكون مفكرًا يستغل مواهبه الشعرية والأدبية فى القضاء على الظلم والخرافات، لكن والده اعترض بشدة وقال له:

«لكى تكون أديبا معناه أن تموت جوعًا، فالفكر فى هذه الأيام يؤدى إلى الفقر»!.

وبعثه أبوه إلى مدرسة الحقوق فور تخرجه فى كلية لويس الأكبر للجزويت، لكنه أهمل دراسته القانونية وكرس وقته كله للشعر والحب والشقاوة، وحاول والده أن يهدده بحرمانه من الميراث حتى يترك الأدب دون جدوى. تدور الأيام بسرعة ويثبت صبيًنا فولتير أنه كان على حق فى اختيار مهنته وعمله، وهذه واحدة من أسباب تفوق العباقرة والعلماء ونجاحهم، اكتشافهم المبكر لمواهبهم وتنميتها ثم الإبداع فى مجالها.

فى سنة ١٧١٥ رحل لويس الرابع عشر وأصبح فيليب الورليان وصيا على العرش، ويجد فولتير الفرصة ليشترك مع العابثين فى هجاء الوصى والسخرية منه بقلمه الساخر ولسانه اللاذع، وتكون النتيجة زيارة سجن الباستيل لمدة أحد عشر شهرًا، وفى هذه الأثناء أخذ فرانسوا اسمه الجديد فولتير وعرف به إلى آخر حياته، وفى الباستيل لم يضيع وقته هباء بل كتب أول إبداعاته ملحمة شعرية عن حياة هنرى ملك نافار، وبعد خروجه من السجن نفى من باريس لمدة عام، وكعادته استفاد من هذا النفى بالاعتكاف وممارسة هوايته فى الكتابة، فكتب مأساته الأولى «أوديب» وظلت تعرض مدة خمس وأربعين ليلة متواصلة، وهى مدة طويلة فى هذا الوقت، ثم كتب عدة مآسٍ ناجحة أدت إلى شهرته واهتمام الشباب بقراءته، وقد ساعد على نجاحه مصادرة السلطات والرقباء لمعظم مؤلفاته وإيقاف مسرحياته مما دفع الجميع إلى التهافت على حضور الليالى الأولى لمسرحياته واقتناء كتبه فى السر كالمنشورات،

بل وكانت كتبه تقرأ فى كل أوربا لا فى فرنسا وحسب، وبالإضافة إلى الشهرة استطاع فولتير أيضًا أن يحقق كسبًا ماديًا أفاده كثيرًا، فى سنة ١٧٢٦ أصدرت الحكومة الفرنسية أوراق اليانصيب الأهلية، ويبدو أن الحكومة ارتكبت بعض الأخطاء فى هذا اليانصيب مما شجع فولتير على شراء كل أوراق اليانصيب ونال الجوائز كلها مرة واحدة مما جعله ينتقل من الفقر إلى الغنى. الدارس لشخصية فولتير يشعر بوجود بعض التناقض فيها، فقد كان صديقًا للملوك مدافعًا عن الصعاليك، فقيرًا يتطلع إلى الثروة، يهوى الراحة والملابس الفاخرة والعربات الأنيقة لكنه يشعر ببؤس الفقراء، ضعيف الجسد قوى الروح، قبيح المنظر مجدور البشرة «أصابه الجدرى» ضعيف البنية، طويل الأنف، خرزى العينين، ومع ذلك محبوب من الجميع، وبخاصة النساء، وهو يهزأ برجال الكنيسة ومع ذلك يهدى أحد كتبه للبابا، وهو يمقت التعصب لكنه تعصب ضد اليهود.

ساعدت أحداث حياته فى زيادة تمسكه برسالته فى تحقيق حرية الإنسان والتسامح بين البشر، وأن الناس إخوة ولو كانوا مؤمنين أو ملحدين، مسيحيين أو مسلمين، يهودًا أو بوذيين.

كان فولتير فى الأوبرا ذات مساء يتسامر مع صحبه والمعجبين به فى حال من المرح والسعادة، وإذا بفارس روهان Henni de Roheen يسير إليه ويسأله فى تعالٍ وعظمة: فولتير ما اسمك الحقيقى؟ فألقى فولتير نظرة سريعة ساخرة عليه ثم عاد للحديث والضحك مع صحبه

مما دفع روهان إلى الغيظ فاقترب منه أكثر وصاح فيه: أسمعت سؤالى؟ أريد أن أعرف من أنت؟ أجاب فولتير: «الاسم الذى أحمله مغمور يامولاى ولكنى أضفيت عليه الشرف..» ازداد غيظ الفارس واحتقن الدم فى وجهه وانصرف.

وفى الليلة التالية هاجمت فولتير عصابة من أتباع روهان المأجورين وانهالت عليه ضربا، فتحدى فولتير الفارس أن يخرج إليه لمبارزته، وجبن الفارس وتخلى عن شجاعته ولجأ إلى رئيس الشرطة ليحميه، وكان رئيس الشرطة من أبناء عم روهان، فقبض على فولتير وأرسله إلى سجن الباستيل الذى اعتاد عليه دون أن يرتكب ذنبًا يعاقب عليه. وقد دفعه هذا الحادث إلى كراهية الملكية والحق الإلهى للملوك وانبرى إلى مهاجمة نظام السلطة المطلقة بأسلوبه الساخر ووسائله المختلفة.

حادث آخر زاد كراهيته للمجتمع الذى يعيش فيه والذى تسيطر عليه الملكية الفاسدة ورجال الدين المتسلطين المتخلفين.

عندما كانت ممثلة فرنسا والمعروفة «أدريين ليكوفوبير» ترقد على فراش الموت وفولتير بجانبها سمع الكاهن يطلب منها أن تتبرأ من فنها باعتباره عملا ضد الدين والأخلاق، لكن الفنانة العظيمة رفضت طلب الكاهن فتركها دون أن يمنحها البركة والعزاء، وماتت فألقى البوليس بجثتها فى المخلفات وصب عليها الجير. ومنذ تلك اللحظة كره فولتير رجال الدين المتوحشين البعيدين كل البعد عن الأخلاق الدينية والتسامح والحب وأعلن الحرب عليهم، وعلى محاكم التفتيش الخاصة بهم والتى تسجن المواطنين الأبرياء.

لم يستطع فولتير الإقامة فى مناخ باريس الملوث بالظلم وكبت الحريات والنفاق والخرافات وسيطرة رجال الكنيسة الجهلة بروح الدين، والسجن من حين لآخر، وعندما خرج من الباستيل سنة ١٧٢٩ قرر أن يسافر إلى إنجلترا أملا فى حياة حرة شريفة تحترم الإنسان.

فى إنجلترا أصابت الدهشة أديبنا المفكر الساخر فولتير فهذا هو المجتمع الحر الذى يحترم الإنسان مهما تواضعت مهنته ومكانته، المجتمع الذى يستطيع أى إنسان فيه أن يعبر عن رأيه، المجتمع الذى يسوده الحب. وتعلم اللغة الإنجليزية، وقرأ آدابها، وبدأ يندمج فى المجتمع الإنجليزى حتى إنه تمنى أن يعيش فيه إلى الأبد، وأرسل إلى صديق له فى باريس يقول: «يستطيع المرء فى هذا البلد أن يفكر حرًا دون خوف من الإذلال والامتهان.. ولو طاوعت نفسى لجعلت فيه مقامى.. إن لم يكن فى ذلك ميزة غير تعلم التفكير الصحيح..».

يقول الأخوان هنرى ودانالى توماس فى موسوعتهما «أعلام الفكر الأوروبى من سقراط إلى سارتر» الجزء الأول، الفصل الخاص بفولتير: «قارن فولتير بين حرية الإنجليز وعبودية الفرنسيين، أطرى مجلس العموم، أثنى على نظام الضرائب البريطانى، فكل امرئ فى إنجلترا يدفع، وكل امرئ يعطى، لا على أساس الطبقة التى ينتمى إليها، بل على أساس دخله، ووجه الأنظار إلى ما ينعم به الفلاح البريطانى إذا قورن بأخيه الفرنسى، فقدم الفلاح البريطانى ليست مرضوضة من ضغط الحذاء الخشبى، وهو يأكل الخبز الأبيض، ويلبس لباسا حسنا،

ولا يحجم عن تغطية سقف بيته بالقرميد خشية زيادة الضريبة المفروضة عليه فى العام التالى.. ولا يستنكف أن يفلح الأرض التى يجنى منها الثروة.. فهو يعيش فوقها إنسانًا حرا». فى إنجلترا عاش فولتير حياته العادية مدة ثلاث سنوات، يتمتع بالحرية الكاملة التى يكفلها له القانون، ويتأمل ذلك المجتمع المثالى فى نظره، وكتب روايته الخيالية الممتعة Micromégas ومعناها الصغير الكبير، وفيها يسخر كعادته من الإنسان الذى يزهو ويعتقد أنه يؤدى دورًا خطيرًا فى العالم وهو جزء ضئيل منه.

أما الكتاب الخطير والمهم الذى كتبه فولتير فى إنجلترا فهو «الرسائل الفلسفية» أو «رسائل عن الأمة الإنجليزية» Les lettres anglaises 1734. وهذه الرسائل لم يكتبها فى البداية للنشر، وإنما لتوزع على أصدقائه ومعارفه، ومع إعجابه الشديد بإنجلترا ونظامها وقوانينها وحرية الإنسان فيها، إلا أن ضباب لندن قد تغلغل فى عظامه واشتاق إلى شمس باريس الدافئة، وانتهز فرصة إلغاء نفيه والسماح له بالعودة إلى باريس ليعود فعلا إليها. فوجئ فولتير برسائله عن الإنجليز منشورة فى باريس سنة ١٧٣٤، فقد نشرها ناشر غير أمين دون علمه، بل ووقعت نسخة منها فى يد بعض أعضاء الحكومة، فرأى فيها إنجيل للثورة وقنابل شديدة الإنفجار وشديدة الخطر على المجتمع الفرنسى، وصدر أمر بحرق الكتاب والقبض على فولتير، واحرق الكتاب علنا، أما فولتير فلم يكن على استعداد لزيارة سجن الباستيل مرة أخرى ففر

هاربًا من الشرطة إلى صديقة أو عشيقة جديدة هى «ماركيزة شاتليه» وهنا تبرز شقاوة فولتير فى حبه للنساء وقدرته على السيطرة عليهن، وكان الماركيز وجنده فى مكان بعيد، مما شجع فولتير على أن يكون سيدًا على الماركيزة وقلعتها، ولاشك أن الماركيزه قد رحبت بفولتير وشجعته على العيش معها، فقد كانت طويلة مهيبة جميلة، محبة للعلم وبخاصة الكيمياء والطبيعة والفلسفة، وكانت تقضى أوقات فراغها فى ترجمة «الانيادة» لفرجيل وكتاب «المبادئ» لنيوتن، وبعامة كانت امرأة رائعة الجمال الخلقى والعقلى، ومن هنا كان اللقاء والاتفاق والعشق، وأصبح منزل الماركيزة فى سيرى والذى يعيش فيه فولتير صالونا أدبيا ثقافيا يحضره نجوم المجتمع وكبار رجال العصر.

نترك فولتير وعشيقته المثقفة لنتصفح أهم كتبه وهى رسائله عن الإنجليز، أو الرسائل الفلسفية وهما كتاب واحد بالطبع، وقد قام الدكتور صلاح عدس بترجمته وتلخيصه.. يحتوى الكتاب على خمس وعشرين رسالة يعبر فيها فولتير عن مدى إعجابه بالمجتمع البريطانى والحرية التى يتمتع بها، واحترامه لعلمائه وفلاسفته وأدبائه، والتسامح الدينى، واحترام الرأى الآخر، وكيف أنه يوجد فى إنجلترا ثلاثون ديانة تعيش كلها فى سلام، وكيف استطاع الإنجليز تنظيم سلطة الملوك بمقاومتهم؟ والشعب البريطانى حريص على حرية الشعوب الأخرى، بقدر ما هو حريص على حريته، وقد عاش فولتير فى أعماق المجتمع البريطانى بكل دقائقه ونظمه وسلبياته وإيجابياته،

ومن هنا كان كتابه موسوعة عن حياتهم، ونستطيع أن نصنفه فى أدب الرحلات، أو اليوتوبيا، أى المدينة الفاضلة فى رأيه، فقد كتب رسائله عن كل شىء فى المجتمع البريطانى، حتى لقاح مرض الجدرى كتب عنه، فهو يقول فى رسالته الحادية عشرة: «إن مرض الجدرى يقتل أو يشوه خُمْسَ المصابين به بينما لا يموت أحد ممن يلقحون به فى تركيا وإنجلترا» ويدعو فولتير بعد ذلك إلى تطبيق هذا اللقاح فى فرنسا، فى الرسالة الثالثة عشرة يحدثنا المؤلف عن الفيلسوف الإنجليزى (جون لوك) الذى أوضح العقل البشرى مثلما يوضح عالم التشريح أجزاء الجسم، وهو لذلك من رواد المدرسة التجريبية فى الفلسفة، وهنا يهاجم فولتير أصحاب الخرافات فى المجتمع، ويقول: إنهم يشبهون الجبناء فى الجيش لأنهم ينشرون الخوف والذعر.. وفى الرسائل الأربع التالية يتحدث عن ديكارت ونيوتن، فديكارت قوى الخيال حالم، وأعظم ما خلفه هو منهجه، أما نيوتن فقد شملت أبحاثه نظام الكون والضياء واللانهائى فى الهندسة وعلم الأزمنة، وهو الذى اكتشف قانون الجاذبية عن طريق الثمرة التى سقطت من الشجرة إلى الأرض، وهو القانون الأول الذى يحرك كل الطبيعة، كما أثبت نيوتن باستخدامه للمنشور الزجاجى أن الضوء يمكن تشكيله إلى سبعة ألوان تسمى ألوان الطيف وهى باندماجها تُكوِّن اللون الأبيض للضوء وهى بالترتيب كالآتى: الأحمر، البرتقالى، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيلى ثم البنفسجى.

فى الرسالة الثامنة عشرة وما بعدها ينتقل فولتير إلى الحديث فى مجال الأدب، فيحدثنا عن المأساة فى المسرح الإنجليزى، وعن «شكسبير» والغريب أنه يعتبره من الهمج مما شجع الفيلسوف «كارليل» أن يثأر لشكسبير بعد قرن من الزمان فيدعو فولتير بالمجنون. ويحدثنا فولتير أيضا عن الملهاة أو الكوميديا فى إنجلترا وهنا يقدم لنا نصيحته المهمة وهى:

«إذا ما أردتم معرفة الكوميديا فى الأدب الإنجليزى فليس هناك من وسيلة غير الذهاب إلى لندن والبقاء فيها ثلاث سنوات وتعلم الإنجليزية ومشاهدة المسرحيات الكوميدية، فالفكاهة وخفة الدم مسألة لا يتذوقها الأجنبى».

ونفس الرأى فى مجالس الشعر، فيعترف فولتير بأن الشعر لا يمكن ترجمته لأنه يعتمد على الموسيقى وجرس الألفاظ وهذا مما يستحيل نقله إلى لغة أخرى. وفى نهاية حديثه يقول: إن الإنجليز لديهم أشعار رائعة ومسرحيات كوميدية جميلة وفلاسفة يجب أن نتخذهم معلمين للجنس البشرى، ولكن ليس لديهم مؤرخون وليس لديهم تراجيديات حقيقية. وفى حديثه عن المسرح يشن فولتير حملة شعواء ضد رجال الدين فى فرنسا الذين يهاجمون فن المسرح. فى الرسالة الخامسة والعشرين والأخيرة يتحدث فولتير عن كتاب «الأفكار» تأليف الفيلسوف الفرنسى بسكال، وهو على رغم إعجابه به إلا إنه يعارضه فى هجومه على الإنسان واتهامه بالشر والشقاء، وفولتير إنسان متعصب للإنسانية والحرية، وكل القيم الأخلاقية.

عاش فولتير مع خليلته وصديقته حياة فكرية رائعة، بعيدًا عن المجون وشقاوة الصبيان، بل كان عشقهما ثقافيا، كانا يستيقظان باكرًا فيدرسان حتى موعد الإفطار الساعة العاشرة والنصف.. وبعد الغداء يدعو فولتير ضيوفه إلى المشاركة فى حوار حر ببهو مكتبه لمدة نصف ساعة، يعود بعدها المضيفان إلى الدراسة والقراءة حتى الساعة التاسعة مساء، موعد تناول طعام العشاء، وبعد العشاء يحلو اللقاء مع الأصدقاء والنقاش مع الحكماء، وكان فولتير كريما يقدم أجود أنواع النبيذ لضيوفه، ويعرض عليهم أجمل تمثيلياته الفكاهية التهكمية الساخرة، فيغرقون فى الضحك والسرور والسعادة والحبور. وفى هذا المناخ الهادئ الجميل كتب فولتير بعض فكاهاته الساخرة مثل «تلميذ الطبيعة» و «زاديج» أى الصادق، و «أميرة بابل» و «العالم كما يسير» و «كانديد» أمتع رواياته التى كتبها فى ثلاثة أيام فقط، ومع أنه يوضح فيها ظلم وقسوة الحياة ولا معقوليتها، إلا إنه تناول الموضوع بسخرية تدفع القارئ إلى الضحك والمرح ونسيان قسوة الحياة نفسها، وهى قدرة رائعة تحقق المبدأ الذى قرره قبل ذلك وهو: «أنا أضحك حتى لا أصاب بالجنون». تبلغ مؤلفات فولتير المائة كما تذكرها بعض المصادر، والسادسة والتسعين، أو السبعين، كما تذكرها بعض المراجع الأخرى، وهى قصص وقصائد ومسرحيات ومقالات، بالإضافة إلى آلاف الرسائل إلى مشاهير عصره، وبجانب الكتب التى ذكرناها هناك، كتاب «الميتافزيقا» و «التاريخ العام» و «أسس فلسفة نيوتن» وقصة «جانوت وكولين» التى يسخر فيها من جهل رجال الدين بالعلم، ومن النبلاء،

ومن كل الأوضاع الظالمة السيئة فى فرنسا، ويركز فى النهاية على أهمية الوفاء فى الصداقة بين الناس.. كذلك صدر لفولتير كتاب عن «جان دارك» Jeanne Diarc ومأساة «بروتس» Brutus ورسالة «تاريخ المدينة» و «قرن لويس الرابع عشر». فى عام ١٧٤٩ رحلت الماركيزة شاتليه تاركة حزنا شديدًا فى قلب صديقها فولتير، وفى عام ١٧٥٥ أطاح زلزال لشبونة بثلاثين ألفا من البشر، كان بعضهم يؤدون الصلاة، فزاد حزنه وتغيرت حياته، وغير مقولته المأثورة: «اضحك ودع غيرك يضحك» إلى «فكر ودع غيرك يفكر»، وأخذت كتاباته لونا قاتما، وأدرك مأساة الحياة مهما حفلت بالسعادة والضحك، وكرس وقته لتطهير بلده والعالم من الظلم، و فى عام ١٧٥٧م صدر قانون فى فرنسا بإعدام المؤلفين الذين يهاجمون الدين، وإحراق كتبهم، وانبرى فولتير يدافع عن حرية الرأى وضرورة التسامح بين البشر، واضطر إلى نشر عشرات الرسائل بأسماء مستعارة حتى ينجو من خطر الإعدام، وشارك فى إعداد «موسوعة الفكر الحر» واتهمه أصحاب الموسوعة بأنه مسيحى، كما اتهمه المسيحيون بالكفر، وفى هذا كان يبتهل إلى الله قائلا: «يا إلهى الذى لا نعرفه يا من تعلن عنك أعمالك.. يا إلهى اسمع منى هذه الكلمات الأخيرة لو أننى أخطأت يوما فقد كان ذلك بحثا عن قانونك وقد يمضى قلبى فى شرود ولكنه مملوء بك أنت».

فى عام ١٧٦٢ وجد فولتير فى مدينة تولوز شابا مشنوقا، وقد أكدت الشائعات أن هذا الشاب كان «بروتستانتيا»، ورغب فى أن يصبح «كاثوليكيا» وأن أباه قام بشنقه، وأهتم فولتير بهذه القضية وجعلها

قضية حياته. وكرس نفوذه وعلاقاته وثروته طوال ثلاث سنوات حتى استطاع أن يعلن براءة الشاب الميت، وقد حركت هذه القضية إصلاحًا في القانون الجنائي كانت الحكومات قد أهملته مدة ثمانمائة عام. في عام ١٧٧٨ رغب فولتير في زيارة باريس التي عاش بعيدًا عنها دائمًا، فركب إحدى العربات، وأمام الجمرك وقفت العربة، وأخذ الضباط يبحث عن الممنوعات، فصاح فولتير من داخلها ساخرًا كعادته: «ليست هناك بضائع مهربة سواي»!

واندفع الضابط يفتح باب العربة وإذا به يفاجأ بفولتير.. فصاح يا إلهي إنه فولتير، ووجد الرجل ترحيبًا كبيرًا به، وخرجت كل باريس ترحب بأديبها وفيلسوفها الساخر.

اهتم فولتير في سنواته الأخيرة بمساعدة الفقراء والمساكين والمظلومين، ولم يكتف بالكتب والكلمات النارية الساخرة بل أنفق أمواله ووقته في بناء المنازل النموذجية للفقراء، كما أقام المصانع المختلفة حتى يجد العاطلون عملا شريفًا يأويهم، وكان يشرف بنفسه على بيع الإنتاج ثم يوزع الأرباح على العمال، وفوق ذلك بنى كنيسة لهم كتب عليها: (بنى فولتير هذه لله).

وكما بدأت حياة فولتير بموقف طريف، وتوقع المرضات لوفاته خلال أربعة أيام، انتهت حياته أيضا بموقف ساخر، فقد جاءه أحد القساوسة وهو على فراش الموت سنة ١٧٧٨ ليناوله الأسرار المقدسة لتغفر له خطاياه، وطلب القس منه أن يعترف له حتى تتم المراسم

الدينية العادية، وفوجئ القس بفولتير يسأله: من بعث بك إلى هنا؟

الله نفسه هو الذى دعانى إلى هنا يا سيد فولتير.. أين أوراق اعتمادك إذن؟! هـا.. ها.. ها. قبل رحيله طلب فولتير من سـكرتيره أن يكتب هذه الكلمـات: «أموت وأنا أعبد الله وأحـب أصدقائى ولا أكره أعدائى وأبغض الخرافات..».

وقـد لخص أحـد مؤرخى فولتير حياتـه فى العبـارة التالية: «أنا اختلـف معك فى كل كلمة تقولها ولكننى سـوف أدافع حتى الموت عن حقك فى أن تقولها..».

فى كتابه «هؤلاء علمونى» يقول المفكر سلامة موسى فى الفصل الخاص بفولتـير: «إننا حين نتأمل حياة فولتير نجد أن الكنيسـة الكاثوليكية قـد انتفعت بعداوته لها لأنها كفت عن اضطهـاد المخالفين، وكان هذا الاضطهاد أكبر ما توصم به فى القرن الثامن عشر كما كان أكبر ما يعمل لفسـادها.. وكذلك انتفعت بفصلها عن الدولة، لأن اعتلاء الدين للدولة يضـر الدين ويحطه، إذ يغنيـه عن القوة الروحية والأخلاق السـامية بما يسـتمتع به من قوة بوليسـية وحماية قانونيـة، والدين يجب أن يتجرد من أى سلطان مادى، أى حكومى أو بوليسى، حتى يستنبط قواه الروحية المسـتقلة ويصل إلى القلوب عفوا دون مساعدة خارجية. وهذه هـى مهمة فولتير التى علمها لأوروبا، مهمـة الحرية الفكرية وفصل الديـن عن الدولة، فحرية العقل، وحرية العقيدة، وحرية الضمير هى أثمن ما يملكه البشر..».

عاش فولتير لتحقيق رسالته وتطهير العالم من عار الظلم، وكان شقيا في حبه للماركيزة شاتليه، ولكنه في جوهره كان عاشقًا ثقافيا، كذلك شقي برسالته وتحمل في سبيلها السجن والنفي والتشريد وحرق كتبه، بل وبناء المنازل والمصانع والكنائس بجهده وماله. وكان سعيدًا بدوره الإنساني فقد كان الإنسان وحريته وسعادته قضيته الأولى والأخيرة حتى الممات.

الحديث عن فولتير فرنسا يذكرنا بفولتير مصر والعرب، وأقصد عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، وقد أطلق عليه بعض الفرنسيين هذا اللقب، يقول الدكتور الأب كمال حنا قلته في كتابه «طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه»: «بين فولتير وطه حسين تشابه كبير في الفكر، عند فولتير لا قيمة للفيلسوف ولا للفلسفة إلا بمقدار ما تعطي للناس من الخير ومن العدل، وعند طه حسين لا يستحق أن يسمى فيلسوفا من لم يعش بحكمة وليس له حظ من المدينة الفاضلة التي يسكنها ويسيطر عليها عشاق الحكمة وحدهم».